المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

بلاغة الحديث

في بيان القرآن النفيس شهادة الجوارح نموذجاً

The eloquence of hadith in explaining the precious Qur'an - the testimony of limbs as an example

بقلم الدكتورة

رشا ممدوح كريم عبده

المدرس بقسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية ـ جامعة الأزهر ـ مصر

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

بلاغة الحديث في بيان القرآن النفيس شهادة الجوارح نموذجاً

رشا ممدوح كريم عبده

قسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية- جامعة الأزهر - مصر

البريد الإلكتروني: rashamamdouh_islam.alx@azhar.edu.eg

الملخص

هذه دراسة بلاغية توضح ما بين القرآن الكريم والحديث من صلة وطيدة، فكلاهما وحي من الله عز وجل، أنزله على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، والفارق بينهما أن القرآن وحي بلفظه ومعناه، أما الحديث فمنه ما هو قدسي، وفيه نظر، فمن العلماء من قال: إنه وحي بمعناه ولفظه، لكنه ليس بمعجز، ومنهم من قال: إنه وحي بمعناه فقط كالسنة النبوية التي كساها نبينا الكريم ألفاظا من عنده، وإنما سمي قدسيا؛ لوجود النص الشرعي على نسبته إلى الله -تعالى- بقوله: (قال الله تعالى كذا)، لذا تجلت المعجزة في القرآن؛ لأن نظمه يعلو جميع النظوم.

وتعد السنة النبوية التفسير الأول لكتاب الله، توضحه، وتفصله، وتخصص عامه، وتقيد مطلقه، وتأول ظاهره، وترفع عنه الإجمال والخفاء؛ لذا لا يستتب دين المرء إلا بها، ولا يستطيع أحد رفضها، فرفضها رفض للقرآن نفسه.

واخترت شهادة الجوارح كنموذج تطبيقي لإظهار صلة الحديث بالقرآن وبيانه له؛ لما فيها من ترهيب، يعيد للنفس رشدها.

واعتمد بحثي على المنهج الاستقرائي؛ في البحث عن الآيات محل الدراسة، وانتقاء الأحاديث الصحيحة التي تحدثت عن شهادة الجوارح، واستبعاد الأحاديث الضعيفة حولها، ثم الاتكاء على المنهج التحليلي في التحليل البلاغي للقرآن والسنة، واستنباط خصائص النظمين والصلة بينهما.

وكانت أول خطواتي في التحليل هو تحليل موطن الشاهد في الآية الكريمة، أي الجزء الذي يتحدث عن شهادة الجوارح منها، ثم ربطه بموطن الشاهد في الحديث، ثم الرجوع إلى السياق العام وربطه ببداية الآية والحديث، وإظهار ما للسياق من أثر في الوجه الإعرابي للشاهد، وما للسياق أيضا من أثر في البناء التركيبي للنظمين. كل ذلك لإظهار الصلة الوثيقة بين كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، الحديث، بيان، قرآن، شهادة، الجوارح.

The eloquence of hadith in explaining the precious Qur'an - the testimony of limbs as an example

Rasha Mamdouh Karim Abdo
Department of Rhetoric and Criticism at the College of Islamic and Arab Studies in Alexandria - Al-Azhar University, Egypt.
Email: rashamamdouh_islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract

This is a rhetorical study that clarifies the close connection between the Noble Qur'an and the Hadith. They are both revelations from God Almighty, sent down to our Noble Messenger, may God bless him and grant him peace. The difference between them is that the Qur'an is a revelation in its wording and meaning. As for the Hadith, some of it is sacred, and there is consideration. Among the scholars are He said: It is a revelation in its meaning and wording, but it is not miraculous, and some of them said: It is a revelation in its meaning only, like the Sunnah of the Prophet, which our noble Prophet clothed with words of his own, but it was called sacred; Because there is a legal text on attributing it to God Almighty by saying: (God Almighty said such-and-such), so the miracle was revealed in the Qur'an. Because his system surpasses all systems.

The Prophetic Sunnah is considered the first interpretation of the Book of God. It clarifies it, details it, specifies its generality, restricts its absoluteness, interprets its apparent meaning, and removes generality and concealment from it. Therefore, a person's religion cannot be established without it, and no one can reject it, as rejecting it is rejecting the Qur'an itself.

I chose the testimony of the limbs as an applied model to show the connection of the hadith to the Qur'an and its clarification of it. Because of its intimidation, it restores the soul to its senses.

My research relied on the inductive method. In searching for the verses under study, selecting authentic hadiths that talked about the testimony of limbs, excluding weak hadiths about them, then relying on the analytical method in the rhetorical analysis of the Qur'an and Sunnah, and deducing the characteristics of the two systems and the connection between them.

My first step in the analysis was to analyze the location of the witness in the noble verse, that is, the part that talks about the testimony of the limbs, then link it to the location of the witness in the hadith, then return to the general context and link it to the beginning of the verse and the hadith, and show what effect the context has on the grammatical aspect of the witness, and what The context also has an impact on the structural structure of the two systems. All of this is to show the close connection between the Book of God and the Sunnah of His Noble Messenger.

Keywords: eloquence - hadith - statement - Quran - testimony – raptors.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

باسمك اللهم أبدأ، وأصلي وأسلم على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عدد حروف القرآن حرفا حرفا، وعدد ما أحاط به علمك، وخط بـه قلمـك، وجرى به حكمك، وعلى آله وصحبه الكرام أجمعين.

أما بعد،

فإذا كان القران الكريم هو نبراس الأمـة ودسـتورها، فـإنَّ الحـديث الشريف هو العماد الأساسي الذي يرتكز عليه تفسير القرآن الكريم؛ لذا قـال رسولنا الكريم عليه صلوات الله وسلامه: "فَاحْذَرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّـي قَـدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[(١)]، لذا اتجهت في هذا البحث إلى التفتيش وراء المقصود بقولنـا: السنة بيان القرآن، حول مسالة بعينها؛ ليكون **عنوان بحثي:**

بلاغة الحديث في بيان القرآن النفيس شهادة الجوارح نموذجا

والذي دعاني للخوض في هذا الموضوع؛ أنني لاحظت فـي الآونـة الأخيرة الكثير من العوام على صفحات التواصل الاجتماعي يرفضون بعضا من الأحكام الشرعية بحجة أنها لم ترد في نص القرآن الكريم، وإغفـال دور السنة في توضيحها، وهذا جرم كبير؛ حيث قرأت كتابا لأسـتاذي الـدكتور: إبراهيم الخولي[(٢)] – رحمه الله– بعنوان: السنة بيانا للقرآن، أوضح فيه الصلة الوثيقة بين الكتاب والسنة، وقدم فيه نماذج تطبيقية رائعة، توضح دور السنة المطهرة في بيان إعجاز القرآن، وتفصيله.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ج١/ ص١٧١، رقم الحديث: ٣١٨، كتاب العلم.

(٢) أستاذ البلاغة والنقد، بكلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر الشريف.

ولأننا أصبحنا في زمن الإفراط في كل شيء، الإفراط في العري، والإفراط في اللغو، والإفراط في الفتوى ... إلخ، **لذا اخترت شهادة الجوارح؛** لما فيها من ترهيب، يعيد للنفس رشدها عما تقول وتفعل، من قبيل وذَكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، إذ إن للجوارح شهادة على المرء يوم القيامة بعد أن كانت طوع يديه في الدنيا.

وقد آثرت لفظ (الحديث) بدلًا من (السنة)؛ ليشمل الأحاديث القدسية والنبوية؛ حيث تعرَّضتُ في البحث إلى كليهما.

ووضعت أهدافا لبحثي ألا وهي:

١- بيان الصلة بين القرآن والحديث حول شهادة الجوارح.

٢- إظهار البناء البلاغي للشهادة في السياقين.

٣- بيان اتفاق واختلاف النظم بين القرآن والحديث حول شهاده الجوارح.

٤- إظهار أثر السياق في التعبير عن شهاده الجوارح بين القران والحديث.

واعتمدت في هذا البحث على المنهج:

الاستقرائي بالبحث عن الآيات محل الدراسة، وكذا التفتيش في الأحاديث لانتقاء الصحيح حول موضوع البحث، واستبعاد الضعيف منها، ثم الاتكاء على **المنهج التحليلي** في التحليل البلاغي للقرآن والسنة، واستنباط خصائص النظمين والصلة بينهما.

وبعد اللجوء إلى كتب التفسير وشروح الأحاديث؛ للوقوف على المعنى المراد الصحيح من النظم محل الدراسة، كانت **أول خطواتي في التحليل** موجهة لموطن الشاهد في الآية الكريمة، أي الجزء الذي يتحدث عن شهادة الجوارح منها، ثم ربطه بموطن الشاهد في الحديث، وهذا ما تم فعله بالمبحث الأول، وبالمبحث الثاني كان الرجوع إلى السياق العام وربطه ببداية الآية

والحديث، وإظهار ما للسياق من أثر في الوجه الإعرابي للشاهد، وهل كان السياق مستأنفا أم متمما لما قبله، وما للسياق أيضا من أثر في البناء التركيبي للنظمين. كل ذلك لإظهار الصلة الوثيقة بين كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

وكانت **خطة البحث** على النحو التالي:

مقدمة: وبها عنوان البحث، وسبب اختيار الموضوع، وأهدافه، والمنهج الذي سرت عليه، وخطه البحث.

تمهيد: وبه الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي، والمقصود بالسنة بيانا للقرآن، ومعنى شهادة الجوارح، والآيات والأحاديث محل الدراسة.

وقسمت البحث إلى مبحثين:

الأول: دراسة بلاغية في شهادة الجوارح بين القرآن والحديث (تحليل موطن الشاهد).

والثاني: شهادة الجوارح بين السياق والبناء.

ثم جاءت الخاتمة بها أهم النتائج، وبعض التوصيات، ثم الفهارس الفنية.

فالله أسأل أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، فيلقى بحثي القبول، وينفع به طلاب العلم، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

***

تمهيد

أولا: الفرق بين القرآن الكريم، والحديث القدسي، والحديث النبوي:

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– بلفظه ومعناه، المتعبد بتلاوته، ولفظ المتعبد بتلاوته أخرج الأحاديث القدسية من حيز الإعجاز؛ لأنها غير متعبد بها، فمِن العلماء –ومنهم الدكتور عبد الله دراز– من قال: إنها منزلة بمعناها فقط على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها لو كانت منزلة باللفظ لَمَا جاز روايتها بالمعنى، ولَحُرِّمَ مسها كالقرآن الكريم الذي لا يمسه إلا المطهرون، كما أنها لم تنزل للتحدي. ولو قلنا لمَ سمي الحديث قدسيا؛ فالإجابة ما هي إلا لوجود النص الشرعي على نسبته إلى الله تعالى بقوله: (قال الله تعالى كذا)، وقد حكى الله –سبحانه وتعالى– عن موسى وفرعون مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم، وأسلوب غير أسلوبهم. ولو وُجِدَتْ هذه العبارة في الأحاديث النبوية لَسُمِّيَتْ قدسية هي الأخرى، وهذا هو الفرق بينها وبين القدسية(١).

وسبقه في هذا الرأي السيد الجرجاني في كتاب التعريفات حيث قال:

إن الحديث القدسي معناه من عند الله تعالى، ولفظه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبره الله –تعالى– به إلهاما أو بالمنام، فأخبره صلى الله عليه وسلم بعبارات من نفسه(٢).

---

(١) ينظر النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) للدكتور محمد عبد الله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعوية الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ه/١٩٩٧م، ص ١٠: ١٢.

(٢) ينظر كتاب التعريفات للفاضل العلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح بيروت، طبعة جديدة، س١٩٨٥م، ص٨٨.

ومنهم من اعتبره نصا إلهيا موحى به لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– بلفظه، ولكن يجوز لرسول الله الإخبار به بلفظ مساوٍ له(١).

وإنني كباحثة في البلاغة والنقد بينتُ هذا النقاش باختصار؛ للتفريق بينهما فقط، لكن القضية ذاتها من اختصاص علماء الحديث، وإنما أثرتها؛ لبيان ما للحديث القدسي والنبوي من شرف خدمة القرآن الكريم، وتفسير معانيه، وتوضيح غوامضه، والإسهام في البحث عن إعجازه.

– – –

ثانيا: السنة بيانا للقرآن(٢)

إن صلة السنة النبوية بالقران ليست كطبيعة الصلات التي تحدث عنها النقاد تحت عنوان التأثير والتأثر، ولا كالتي سماها البلاغيون بالسرقات والأخذ، إنما هي صلة بين طرفين نهايتهما واحدة، وهذا فرق حاسم؛ فالسنة تعد أول تفسير شامل للقرآن الكريم، ومنهاج على غير ما ألفه الناس من منهاج وطرائق المفسرين؛ حيث يوجد فرق شاسع بين بيان رسول الله واجتهاد المفسرين في فهم الكتاب العظيم.

---

(١) ينظر تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة: لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، ص١٦٦.

(٢) ينظر لسان العرب لجمال الدين بن منظور، دار بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، مادتا (س ن ن/ ب ي ن). وينظر فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي: تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق وتعليق: الشيخ علي حسين علي، مكتبة السنة، القاهرة، س١٤٢٤ه/٢٠٠٣م، ص ٢٢. وينظر أصول الفقه مباحث السنة والكتاب: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٢٤: ٢٦. وينظر السنة بيانا للقرآن: للدكتور إبراهيم محمد الخولي، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٨– ٩– ٣٣– ٥٨– ٧٣– ٨٢. وينظر بحث بيان السنة للقرآن: للدكتور داود بورقيبة، قسم الأحاديث وشروحها وعلومها، مجلة الدراسات، جامعة الأغواط، الجزائر، العدد ٦، س٢٠٠٧م.

وآثرت لفظ (السنة) ولم أقل: (الحديث) في هذا السياق الفرعي؛ لأن منهج الحديث القدسي هو منهج السنة النبوية ذاته من حيث التأكيد والتوضيح، لذا يدرج في صحيح كتب الأحاديث النبوية، كصحيح مسلم والبخاري وغيرها، مما لها من الكم ما يفوق الأحاديث القدسية، ومن الكيف ما يفردها بالتشريع فيميزها عنها.

كما أن **الحديث** لفظٌ ضد القديم، واصطلاحا: هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم قولا له، أو فعلا، أو تقريرا، أو صفة، حتى الحركات والسكنات في اليقظة والمنام، فهو لفظ أعم من السنة.

والسنة في اللغة: تطلق على الطريقة التي يتخذها الإنسان لنفسه في الحياة، وفي اصطلاح الأصوليين: هي كل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، أي هي تشمل سائر الأحكام. ومرتبتها بالدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، وهذا لا ينافي أن تكون السنة قاضية من حيث البيان؛ لأن هذا هو قرار القرآن نفسه؛ وذلك قول الله عز وجل: "**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** "(١).

والبيان في اللغة: ما بُيِّن به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بيانا: اتضح فهو بَيِّنٌ، واستبان الشيء: ظهر. والبيان عند علماء الشريعة الإسلامية: هو الدليل الذي أخرج الشيء عن حيز الإشكال، أو هو الدليل الذي يوضح مراد الشارع من النص. **وللقرآن الكريم بيانه إذًا بنص القرآن:** "**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ** "(٢).

---

(١) سورة النحل آية ٤٤.

(٢) سورة القيامة آية ١٩.

وعدل النص القرآني عن لفظ السنة بلفظ الحكمة، فقال تعالى: "**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** "(١)، حيث إن الحكمة مقرونة في القرآن بالكتاب، وذلك يطابق مفهوم السنة في الاستعمال النبوي، وفي اصطلاح الباحثين في الدين من قولهم: الكتاب والسنة، وهما عطاء الله لرسوله الكريم، إذًا فالمقصود بالحكمة هي السنة.

والقران وحي بلفظه ومعناه، والسنة وحي بمعناها دون لفظها، لذا تكفل الله –سبحانه وتعالى– بحفظه – أي بحفظ القرآن– بقوله: " **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**"(٢)، والسنة لها أكثر من رواية، كما أنه يمكن جواز رواية الحديث بالمعنى، على خلاف القرآن الكريم، لذا فالقران هو المعجزة وبه كان التحدي.

ولعل السبب في هذا العدول: أن معنى الحكمة هي المعاني التي تضمنتها أحاديث رسول الله، أوحاها الله إليه وكساها صلوات الله عليه ألفاظا من عنده، أما السنة فهي هذه المعاني الموحي بها بعد أن اكتست العباره التي تحملها، إذًا فالحكمة هي المعاني وحدها، والسنة هي المعاني بألفاظها، والدليل: إن من أسماء الله –تعالى– الحكيم، وصفات القرآن الحكيم، ولو قلنا أن الحكمة يمكن أن يقصد بها القرآن، فالقرآن حكمة باعتبارين؛ اللفظ والمعنى، والسنة باعتبار المعنى؛ لأنها وحي من أحكم الحاكمين.

إذًا فالقرآن العظيم له بيان؛ بيان إلهي؛ هو الحكمة التي ألهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان نبوي؛ وهو السنة التي نطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والبيان الأول موجه لرسول الله، والبيان الثاني موجه للناس المخاطبين بالقرآن.

---

(١) سورة النساء آية ١١٣.

(٢) سورة الحجر آية ٩.

ومنهج السنة في تبيين القرآن هو بيان مراد الله من خطابه للناس في هذا البيان المعجز، رغم أنه نزل بلسان عربي مبين، لسان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقومه؛ لأن ما أتيح للبشر من فهم معانيه ودلالته قليل جدا، بنص القرآن الكريم: "وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا "(١)، والقرآن واسع جدا بمعانيه ودلالته كما جاء في النظم القرآني: "قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا "(٢)، وقصه موسى والخضر وحدها تؤكد ذلك.

وهذا البيان المعجز قدر لنبيه العظيم بأن يكون واسع الفصاحة؛ لتلقيه وتمكنه من تبيينه للناس بيانا كافيا شافيا، فقوله تعالى: "ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ "(٣) ملخص لحديث الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان الذي يقول:

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: **مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: " الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ". قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**(٤).

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

(٢) سورة الكهف آية ١٠٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٤.

(٤) صحيح مسلم ج١/ص١٩، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، كتاب الإيمان.

وقد أشرتُ سابقا في المقدمة أني أخذت فكرة بحثي من كتاب (السنة بيانا للقرآن) لأستاذي الدكتور إبراهيم الخولي –رحمه الله– واستوقفني نصب أستاذي لكلمة (بيانا) بعنوان كتابه، ولم يجعلها خبرا ليقول: السنة بيانٌ للقرآن، أو السنة بيانُ القرآنِ، ولم يقل أيضا: السنة هي بيان القرآن، باستخدام الجملة الإسنادية الحالية (هي بيان)؛ لتكون مسندا ومسندا إليه، فتؤدي المعنى وتتمُّه وتؤكده. ومع أن نَصْب أستاذي للكلمة يكمن في بطن الشاعر إلا أنني حاولتُ التوصل لسر بلاغي يرد لنفسي تساؤلها، ولعل السبب في ذلك أن الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر تجزم لك بأن السنة هي بيان وتوضيح للقرآن فحسب، وتغفل نقطة مهمة وهي:

إن السنة في أحيان أخرى قد تأتي بحُكْم فتُحَرِّمه، وهو مسكوت عنه في القرآن الكريم، ثم تأتي لآخر فتوجبه، وهذا ما جعلني أتبع أستاذي في نصب كلمة (بيانا) بالعنوان الفرعي بهذا التمهيد الوجيز، الذي بيَّن توخيه الحذر في انتقاء شكل الكلمة المناسب لمنهجها؛ فالسنة ليست مؤكدة فقط، أو مبينة فقط – وإن كان هذا هو الغالب–، **لكنها أحيانا تكون مُشَرِّعة**؛ فقد أعطى الله –جل جلاله – الحق لرسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم– التشريع، وأوجب علينا الطاعة والامتثال لقول المولى –عز وجل– في كتابه الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾(١) .

أي أن هذا البيان إما أن يكون **بتوضيح** معاني القرآن، وتفصيل مجمله، وتخصيص عامه، وتقييد مطلقه، و**تأكيد** ما ورد في القرآن، أو التفريع على الأصول، ووضع القواعد العامة والأصول الكلية لجزيئات القرآن، أو **تقرير** أحكام لم ترد في القرآن الكريم، مثل: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها في النكاح، وغيرها من الأحكام.

---

(١) سورة النساء آية ٨٠.

ومما سبق يتضح: إن كان التسليم بأن السنة هي تفسير لكتاب الله فلابد من التسليم بأمر مهم وهو:

إن السنة ليس بها ما يخالف القرآن، ورفضها يُعَدُّ رفضا للقرآن ذاته، ورفضا للرسل ووظيفتهم، بل ورفض للإسلام ذاته، فهي لا تستقل عنه، أو تنفرد بحكم غير موجود بالقرآن؛ إذ هي مواكبة له؛ لذا يوجد تشابه بين مضمونها وأسلوبها مع القرآن، ولكنها أوسع بيانا منه؛ لما أوضحتُ من منهجها في توضيح بيانه، وأقل بلاغة عنه؛ لما انفرد به نظم القرآن الكريم من إعجاز لم يُسبق من ذي قبل لدى العرب، ولم يأتِ به أحد إلى أن تقوم الساعة.

***

ثالثا: المقصود بشهادة الجوارح:

إن يوم القيامة هو اليوم الحق، يوم الجزاء، يوم عرض الأعمال على أصحابها، واطلاعهم على صحائفهم؛ ليروا ما بدر منهم طيلة حياتهم في الدنيا، وإن منهم من ينكر أعماله السيئة التي ستؤول به إلى نار جهنم والعياذ بالله، لذا سينوب عنهم شاهد فيشهد بما فعل وبما قال، والشهادة في اللغة: مِن شهد فلان على فلان بحق فهو شاهد وشهيد، والشهادة خبر قاطع، وتكون بالمشاهدة، وبالحضور، والاطلاع على الشيء[١]؛ حيث يختم الله -سبحانه وتعالى- على أفواههم آنذاك، ويعطي الأمر إلى جوارح الإنسان بالشهادة على صاحبها فيما فعل، وجوارح الإنسان: أعضاؤه وعوامل جسده، كيديه ورجليه، وواحدتها جارحة، وسميت بذلك؛ لأنهم يجرحن الخير والشر أي يكسبنَّه[٢]. وهذا يلزم الإنسان بأخذ الحيطة والحذر من الوقوع في المحارم والمعاصي، وعدم الاستخفاف بالأوامر والنواهي التي أنزلها الله عز وجل، وأمرنا بها في قرآنه الحكيم؛ فالإنسان لا ينفعه سوى عمله الصالح، والجميع عاجزون عن نصرته.

***

(١) لسان العرب مادة (ش هـ د).

(٢) لسان العرب مادة (ج ر ح).

رابعا: الآيات والأحاديث محل الدراسة

*القرآن الكريم

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة النور: آية ٢٤.

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة فصلت: آية ٢٠.

***

*الأحاديث القدسية: من كتاب الزهد والرقائق

(٢٩٦٨) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ

عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ "(١).

– – –

(٢٩٦٩) حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ النَّضْرِ بْنِ أَبِي النَّضْرِ، حَدَّثَنِي أَبُو النَّضْرِ هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدٍ الْمُكْتِبِ، عَنْ فُضَيْلٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ "(٢).

***

*الحديث النبوي: من كتاب الأهوال

٨٧٩٠ – حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ، ثَنَا بَحْرُ بْنُ نَصْرٍ الْخَوْلَانِيُّ، ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ دَرَّاجٍ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُيِّرَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ فَجَحَدَ وَخَاصَمَ، فَيُقَالُ لَهُ: جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ، فَيَقُولُ:

(١) صحيح مسلم ج٤/٢٢٧٩، كتاب الزهد والرقائق.

(٢) صحيح مسلم ج٤/٢٢٨٠، كتاب الزهد والرقائق.

كَذَبُوا، فَيُقَالُ: احْلِفُوا، فَيَحْلِفُونَ ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللَّهُ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ. «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ»(١).

[التعليق – من تلخيص الذهبي] ٨٧٩٠ – على شرط مسلم.

***

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، الجزء الرابع ٦٤٨، رقم الحديث ٨٧٩٠، كتاب الأهوال.

المبحث الأول

دراسة بلاغية في شهادة الجوارح بين القرآن والحديث

(تحليل موطن الشاهد)

يتحدث هذا المبحث عن آيتين وحديثين، **ربط المفسرون بينهما لوضوح الصلة بينهما**، فيقول المولى عز وجل:

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة النور: آية ٢٤.

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة فصلت: آية ٢٠.

وموطن الشاهد بالحديث الشريف:

"قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ ".

والشاهد بالحديث الثاني:

"قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ".

والحديث الثالث:

"وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ.

***

تخبر آية النور عن تَكَلُّم الجوارح، وشهادتها على أصحابها يوم القيامة، فتثبت لهم جميع أعمالهم، والحديث هنا عن مَن يقذفون المحصنات المؤمنات بالزنا، فيتوعدهم الله –عز وجل– بالعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، بينما **تصور سورة فصلت** ما آل إليه الكفار يوم القيامة، بعد إنكارهم دعوة الرسل، ورفضهم للقرآن الكريم، وتذكيرهم بشهادة الجوارح عليهم يوم القيامة، واستحقاقهم للعذاب؛ جزاء بما كانوا يعملون. أما الحديث القدسي يصور لنا جزاء العبد المنافق يوم القيامة، في صورة حوارية بين العبد وربه، وتجلتْ شهادة الجوارح في الحديث النبوي أيضا؛ حيث إن الأحاديث ساقها الله –عز وجل– على لسان نبينا المصطفى لرسالته.

وانظر إلى بلاغة النظم في آية سورة النور، يقول المولى عز وجل:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقوله: "تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ" أسلوب خبري صُدِّر بالفعل المضارع الذي استحضر الصورة، وأشعرك بحصول الشهادة نصب عينيك، والغرض من ذلك هو التهديد والترهيب من الإتيان بالمعاصي والذنوب، فالألسنة والأيدي والأرجل كانت مسخرة للإنسان، أمرها الله –عز وجل– بطاعته في الدنيا، ونزع ذلك التسخير منه في الآخرة، فتشهد بما رأت وفعلت، وقال النيسابوري[1]: كأنها كالشاهد على العقود؛ يعرف ما تم، وما لم يتم فيها، ثم يثبت ذلك عند الحاكم فيما بعد.

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ، ج١/ص٤٢٢، بتصرف.

وقوله: "يَوْمَ" ظرف متعلق بما قبله من معنى الاستقرار[١] في قوله: "وَلَهُمْ" في الآية السابقة: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ"؛ حيث أثبت لهم أمرين:

١-العذاب العظيم

٢-شهادة جوارحهم

فيكون بذلك وعيد بعد وعيد؛ فلم يكتف بالعذاب دون شهادة؛ بل سيفضح الله -عز وجل- أمرهم بشهادة الجوارح عليهم.

بينما قال تعالى في سورة فصلت: "شَهِدَ عَلَيْهِمْ" عبر بالفعل الماضي المتحقق الحدوث؛ لما في السياق من اختلاف بين الآيتين؛ فالسياق في سورة النور يتحدث عن حكم تشريعي يخص قذف المحصنات المؤمنات، وهو أمر غاية في الأهمية، ويمكن حدوثه في أي زمان ومكان، إذًا فدلالة الفعل المضارع تكون بمثابة تذكرة دائمة لكل عاقل؛ للبعد عن تلك الرذيلة، أما سياق سورة فصلت كان للدفاع عن القرآن الكريم، الذي هو دستور الحياة البشرية، وإذا حافظنا على الأحكام الشرعية التي يدعو إليها الإسلام كان الحفاظ عليه قائم لا محال، لذا فدلالة الفعل الماضي في سورة فصلت متفق مع سياق السورة التي تبين إنكار المشركين لما ورد في القرآن، ويُظهِر ثباتهم في عنادهم وكفرهم الذي قد أوقع بهم في العذاب يوم القيامة، أي أن هذا العذاب أمر متحقق، واقع لا رجوع فيه.

وقد أتى بالمسند إليه في سورة النور متمثلا في قوله: "أَلْسِنَتُهُمْ"؛ لأن قذف المحصنات يكون بالألسنة، وعطف عليها الأيدي والأرجل؛ لأنها تشارك

(١) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبدالله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: ٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ج٢/ص٩٦٨، بتصرف.

في الرمي بالفاحشة؛ فالأيدي تخطط الحيل، والأرجل تطأ الأمكنة؛ لتوفير كل السبل الموصلة إلى هذا الرمي والافتراء.

وذلك بخلاف المسند إليه في سورة فصلت المتمثل في قوله: "سَمْعُهُمْ"؛ حيث إن السمع هو الوسيلة الرئيسة في سماع الرسل وتلقي دعوتهم؛ فالكافر كان يتعامل مع الدعوة بالمنطلق الذي وضحه المولى عز وجل: "كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا "[1]، وقال الشاعر بشار بن برد: والأذن تعشق قبل العين أحيانا، ولو قيس ذلك على الكافر لكان عشقهم لسفههم، وعدم احتمالهم للحق واستساغته أقوى، لذا صُدِّر السمع كشاهد أول عليه، ثم عطف على السمع (البصر)؛ لأن آيات الله في كونه تتمثل أمام أعينهم، وقد منحهم الله -تعالى- حاسة البصر؛ للتفقد والامتثال لأوامره تعالى، ولكنهم عاندوا وكفروا بما رأوه، لذا كان البصر هو الشاهد الثاني على جحودهم وإنكارهم للرسل وللقران الكريم.

ثم عطف الجلود على البصر، وشهاده (الجلود) شهادة حقة؛ إذ إن النفس تتلمس بها كل شيء، لذا تشهد على ركوب العبد محارم الله في الدنيا. وقال القرطبي: إن المقصود بالجلود: الفروج، لذا استشهد عليهم في الإتيان بالمحرمات التي حرمها الله -تعالى- في كتابه الكريم.

ولا مانع أن يكون تجزئة المسند إليه في الآيتين من قبيل المجاز المرسل؛ حيث عبر بالجزء وأراد الكل، أي أن الجسم كله يشهد عليه بما فعل، ولعل ذلك التفصيل مناسب لما فعله المسند إليه من أعمال منكرة تناسب سياق السورتين.

---

(١) سورة لقمان آية ٧.

وحين تربط بين سياق الحديث والآية يظهر لنا أن ما يخصها منه هو قوله صلى الله عليه وسلم:

"**ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ** "

وهذا الحديث حديث قدسي، مثبوت في صحيح مسلم، يخاطب فيه المولى –جل جلاله– عبده، فيعرض له جزءً مما يلاقيه يوم القيامة، مرويٌّ على لسان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وذلك الجزء موجه للعبد المنافق.

وبناء الفعل لما لم يسم فاعله في قوله: (يُقَالُ)؛ لتعظيم المولى عز وجل؛ فلم يقل: يقول، كما هو الحال في بداية الحديث؛ لما في هذا الوقت والشأن والحديث من عظمة وفخامة لا تتناسب إلا مع الخالق عز وجل، فهو القادر على البعث يوم القيامة، وهو القادر على انطاق الجوارح. والضمير في (لَهُ) يعود على المنافق.

ثم انظر إلى التفصيل الذي لجأ إليه الحديث لتفسير كتاب الله العظيم؛ حيث أظهر لك الفعل ورد الفعل؛ عندما صُرِّح للمنافق بالإتيان بالشاهد، وما جال بداخله حيال هذا الأمر، حينما قال له المولى جل جلاله: "**الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟**".

وقوله: (**الْآنَ**) يقصد به: يوم القيامة، ظرف متعلق بقول الصحابة عند سؤالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وهل نرى ربنا يوم القيامة؟، وناسب هذا المقام الفعل (**نَبْعَثُ**)؛ فالعرب كانوا يستخدمون هذه الصيغة للواحد العظيم

الذي له أعوان يطيعونه، ولا شك أن الملائكة الكرام ينفذون أوامره تعالى، ولا ينقصون منها شيئا.

ولم يقال: نبعث شاهدًا عليك، بل قيل: **(شَاهِدَنَا)**؛ للتعظيم، فالقادر على منحك هذه الجوارح في الدنيا قادر على تحريرها من قيد إرادتك يوم القيامة؛ لتشهد وتشتكي منك.

ويقول الإمام الشعراوي[١]: إن العلماء حاولوا تقريب المسالة فقالوا: إن الجوارح لا تنطق، وإنما تلتقط صورا لتسجل ما فعله الإنسان في دنياه، ثم تخرج هذه الصور للمولى – عز وجل– يوم القيامة، وعلى أي نحو فإن الله – جل جلاله– سيجعل تلك الجوارح تعصي صاحبها؛ لتنفذ مراده تعالى.

كما أن المعنى اللغوي لكلمة **(نَبْعَثُ)** هو الإرسال، أي نرسل شاهدنا، فخَيَّل للمنافق أنه سيرسل شاهدا له من مكان بعيد لا يعرفه حق المعرفة، وناء الفاعلين أيضا أكدت هذا البعد والجهل به، لذا قال: **(وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ)**، جملة حالية لا محل لها من الإعراب، والواو حالية بمعنى **(إذ)**، أي: الآن نبعث شاهدنا عليك إذ يتفكر في نفسه، جملة أظهرت عظيم دهشته مما قيل له، من الإتيان بالشاهد شاهدٌ عليه.

والفَكْر والفِكْر إعمال الخاطر في الشيء، والتفكير هو التأمل[٢]، فتلحظ أن هذه اللفظة أكدت حالة الإنكار التي توقف عندها هذا المنافق؛ عندما عبَّر بالاستفهام في قوله: **(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟)** استفهام إنكاري؛ حيث ينكر حدوث ذلك في هذا المقام، فقد فعل المنافق أعماله السيئة في الخفاء، لذا يتعجب من قول الله –تعالى– له بإرسال شاهد عليه.

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي – الخواطر: لمحمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، س١٩٩٧م، ج١/ص٣٢٢.

(٢) لسان العرب مادة (ف ك ر).

وبالتدقيق تجد أنه عبَّر بـــ(ذا) ولم يقل: (هذا)؛ لتقليله –أي المنافق– من هذا الشاهد الذي سيتجرأ على فعل الشهادة في حقه، لذا جاء التقليل في المبني مطابقا للمعنى.

كما أن التعبير باسم الإشارة يستحضر الصورة فناسب قـــول المـــولى (**الْآنَ نَبْعَثُ**) فالمنافق وإن كان ينكر وجود الشاهد لكنه يعلم جيدا أن الله –جل جلاله– قادر على إيجاده.

والاسم الموصول لا يُؤتى به إلا إذا كان المخاطب والمـــتكلم عـــالمين بجملة الصلة، وهي (**يشهد عليّ**)، والمتكلم عمد إلى تعريـــف المســـند إليـــه بالموصولية؛ لأنه لا يعلم من أحواله إلا هذه الجملة، فهو يعي جيدا أن الله – سبحانه وتعالى– قادر على كل شيء، ولكن لـــم يتخيـــل إنطـــاق جوارحـــه وشهادتها عليه؛ إذ لا يوجد غيرها شاهدٌ عليه، فيكون التعبير بالاسم الموصول من قبيل التهكم.

ثم أظهر الحديث القدسي كيفية الشهادة، حيث عبر القرآن بقوله: "**يـــوم تشهد عليهم ألسنتهم**" وقوله: "**حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم**" دون إطنـــاب أو إعلام بكيفيتها، ومع أن القرآن الكريم لجأ للإطناب في مـــواطن كثيـــرة؛ كسرد قصص الأنبياء وغيرها من إظهار كيفية الوضوء مثلا، إلا أن شـــهادة الجوارح أتت في مواطن متفرقة؛ للتذكرة حسب السياق المتطلـــب لهـــا، ثـــم الدخول في سرد مظاهر العذاب المتعددة التي تهيب الكافر وترهبه؛ علَّه يرجع عما هو فيه. وهذا على خلاف الأحاديث التي يتم التفصيل فيها حسب الموقف أو الشيء المسئول عنه.

ونستكمل ما يتصل بهذا المسلك في الحديث الشريف بقوله: "**فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُـــهُ وَعِظَامُـــهُ**

بِعَمَلِهِ"، والفاء في **(فيختم)** للتعقيب، فالختم هو الرد الأمثل على إنكار المنافق لهذا الشاهد، الذي أخبره به المولى عز وجل، بل إن الختم جاء إثر الإنكار، دون ترك مهلة له.

واللافت للنظر أن قول الله –عز وجل– في الحديث: **(الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ)** أسلوب خبري هادئ يبين قدرة الله الواسعة على تنفيذ ما يقوله تعالى، فقوله عز وجل ثابت واقع، أما قول المنافق أتى في أسلوب إنشائي، متمثل في الاستفهام، ووفقا لطبيعته فقد أنبا عن الثورات الداخلية التي يعانيها هذا المنافق في ذلك الوقت؛ فالإنشاء الطلبي أسلوب به ضجة وثورة وهيجان؛ لما فيه من معنى الطلب القائم على التبادل بين المتكلم والمخاطب، لذا ناسب هذا الأسلوب لفظه التفكير؛ التي هي خليط من عمليات عصبية، وكيميائية، ونفسية، متداخلة ومعقدة.

وأصل **(الختم)** الطبع، وهما في اللغة واحد، ومعناهما التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء، والختام الطين الذي يختم به على الكتاب، والختم حفظ ما في الكتاب بالطين، أي موضع علامة مرسومة بخاتم؛ ليمنع من الفتح[1]، وكان العرب تختم على قوارير الخمر؛ لتسلم من الأقذار فتعتق. وعلى أغلب الظن فإن الختم هنا ليس على حقيقته من وضع الختم على فم المنافق، بل استعير للفظ (سكت أو خرس) على سبيل الاستعارة التبعية، وإنما أتى بلفظ الختم؛ لما فيه من شدة الإحكام؛ لأن المنافق لن يستطيع التكلم وإن حاول ذلك، وفيه أيضا نوع من التحقير والإذلال له؛ في أنه مسلوب الإرادة، وقد يكون الختم تمثيلا؛ بتشبيه هيئة المنافق وهو غالق فمه وقد حرره المولى –عز وجل– من سيطرته بهيئة الكتاب الذي ختم عليه

(١) لسان العرب مادة (خ ت م).

بالختام؛ حتى لا يطلع أحد عليه، ويجوز في الختم أيضا أن يكون مجازا مرسلا علاقته اللزومية؛ حيث إن حرمانه مما سخره الله له في الدنيا يستلزم غلق فيه وعدم تحدثه إلا بما يأمره الله – عز وجل– به، لذا بني الفعل **(يُخْتَم)** لما لم يسم فاعله؛ للتعظيم، أي لتعظيم الذات الإلهية المقدسة والله أعلم.

وذكر المسند إليه في قوله: **(فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ)** من وضع المظهر مكان المضمر؛ حيث إن القرينة تدل عليه من قبله في قوله: **(وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ اِنْطِقِي)**، ولكن أوثر إظهاره؛ للتأكيد على شهادة الجوارح وامتثالها لأمر الله تعالى، لذا أتى بالفاء في **(فَتَنْطِقُ)** الدالة على السرعة في التنفيذ والاستجابة.

ولم يكتف السياق القدسي بإظهار كيفية الشهادة فحسب، بل بإظهار سبب الإشهاد على هذا المنافق أو الكافر في قوله: "**وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ**"، فالمولى –عز وجل– قادر على فرض العقوبة عليه وإعطاؤه الجزاء المستحق دون اللجوء إلى هذا الشاهد، ولكن الله –سبحانه وتعالى– هو الحق الذي لا يرضى بالظلم، هو الذي يعطي كل ذي حق حقه، وحقه تعالى أن يقتص ممن فرط في حقه جل جلاله، وحق الله هو الإيمان به والامتثال لأوامره، وحق العبد أيضا أن يعي ذنبه قبل أن يلقى جزاءه.

وهذا يرسخ لدينا مذهبًا تعليميًا رصينًا؛ من أن المعلم –ولله تعالى المثل الأعلى– يجب أن يقف على خطأ تلميذه فيفهمه إياه قبل العقاب؛ حتى يتعلم من أخطائه، ويتعلم التفكير المبدئي في عواقب الأمور قبل الدخول فيها؛ لأنه سيأتي يوم لا مجال فيه للاعتبار والإعادة، ذلك الوقت الماثل فيه المنافق عندما فاتت الفرصة وأزفت فيه الآزفة.

لذا فاسم الاشارة في قوله: **(وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ)** يعود على الإشهاد، أي ذلك الإشهاد، والتعبير به هنا؛ لتفخيم الحدث، واللام في ليعذر سببية، أي سبب ذلك الإشهاد أن يقطع الله اعتذاره، وهو من الإعذار، وهو إقامة الحجة على أحد، بحيث لا يبقى له عذر(١)، والمعنى(٢) أنه يزيل عذره من قبل نفسه، فلا يبقى له عذر فيما يفعله من أفعال سيئة، وقيل المعنى: إنه يبقى تعالى لـه عذرا في عذابه.

ثم قال: "**وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ**"، وقولـه: **(وَذَلِـكَ الْمُنَافِقُ)** تخصيص وطريقه تعريف الطرفين؛ حيـث قصـر هـذا الإشـهاد والإعذار على المنافق، من قصر الصفة على الموصوف؛ للتهكم منه، وساعد التعبير باسم الاشارة هنا من زيادة الاستهزاء به.

وتلحظ تكرار اسم الإشارة في كل جملة، وإفادته في كل واحدة غـرض بلاغي يخالف الآخر؛ إذ إن السابق منه يخالف قوله: **(وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ)**؛ لأن ذلك للإشارة البعيد، فكأنه أتى به هنا ليقول: هو البعيد، أي بعـدا وسحقا له، أسلوب خبري لفظا إنشائي معنى.

وأفاد الاسم الموصول استهجان الإتيان باسمه في حضرة جلاله تعالى، وجملة صلة الموصول زادت من تحقير هذا المنافق؛ فالفعـل سـخط ضـد الرضا، وهو الكره والغضب، والله -سبحانه وتعالى- لا يكره عبده، بل يكره

---

(١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (المسمَّى:الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج فـي شـرح صحيح مسلم بن الحجاج)، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَـرَري الشافعي، نزيل مكة المكرمة والمجاور بها، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، المستشار برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمـة، دار المنهـاج - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ج٢٦/ص٣٦٥.

(٢) ينظر لسان العرب مادة (ع ذ ر).

أفعاله وأعماله، فيكون المعنى: أن هذا المنافق لن يلقى رضا الله أبدا؛ حيث أتى المعنى في صورة خبرية ثابتة، تجعله مستقرا في نار جهنم خالدا فيها.

وبالنظر إلى الحديث الثاني تجده قد تحدث عن شهادة الجوارح، ولكن زاد معنى جديدا، وهو: ندم المنافق على أفعاله وندمه في مجادلته وعناده وكفره، بعد شهادة الشهود عليه، فمَنْ بَعْد الله -عز وجل- يجيره..؟!، ومَنْ بَعْد نفسه يثق فيه..؟! والذي عبر عنه بقوله:

"**ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**"

فبعد ذكره للختم على أفواه المنافقين، ذكر ما هو كناية عن رفع الختم، وإزالته في قوله: ثم يخلي بينه وبين الكلام، و(**ثم**) للترتيب مع المهلة[١]، عبر بها؛ لترك الوقت الكافي لشهادة الأعضاء، كلٌ حسب سيئاته، كما وكيفا.

والخلي: النبات الرقيق ما دام رطبا، وأخلى الله الماشية يخليها إخلاء: أنبت لها ما تأكل من الخلى[٢]، واستعير الإنبات هنا لمعنى الوصل وإطلاق الكلام، على سبيل الاستعارة التبعية.

ثم قال: أي الله عز وجل، فيقول: أي العبد المنافق: (**بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا**) جملة خبرية لفظا إنشائية معنى، أي أبعدكن الله عن رحمته، وأهلككن.

وقوله: (**فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**) الفاء سببية، توضح تعجب المنافق من جوارحه ودعاءه عليهن، وقدم الجار والمجرور على الاختصاص؛ حيث قصر دفاعه وعنده ومجادلته مع المولى -عز وجل- في ذلك اليوم عليهن، أي الأعضاء؛ ليدفع عنهن النار، وهن يشهدن عليه.

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للإمام جمال الدين بن هشام، تحقيق: أ.د/ صلاح عبد العزيز علي السيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج١/ص١٦٣.

(٢) لسان العرب مادة (خ ل ي).

والمناضلة من الرمي بالسهام، واستعارها للدفاع؛ ليبين الجهد الذي بذله المنافق في الدفاع عن نفسه وإبعادها عن النار، ويريك كم من حسرة يعانيها بسبب ندمه على ما فات وما فعل.

وقوله: **(فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ)** ليس من الكذب في شيء؛ فالمنافق كان يظن أن جوارحه تطيعه على كل حال، ولكنه عندما مكر واستهزأ بآيات الله ولم يصدقها ولم يعمل بها، استهزأ الله –تعالى– به يوم القيامة؛ بأن رفع سلطته عنها فأصبحت تشكو ما فعلت إلى خالقها.

***

وبالنظر إلى موطن الشاهد بالحديث النبوي: **(وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ)**، تجد أن الحديث يتحدث أيضا عن الكافرين وشهادة جوارحهم يوم القيامة، واختير من الجوارح الألسنة؛ لأنها هي السبيل في السرد والإلقاء والتوضيح، ولا سبيل بعد شهادتها إلا دخولهم النار؛ لذا أتى بالفاء للسرعة في الحتف والزج بهم فيها.

المبحث الثاني

شهادة الجوارح بين السياق والبناء

أوضحتُ سابقا أن الحديث تفصيل لما نزل في كتاب الله العظيم، فقد أثبت القرآن شهادة الجوارح، وبيَّنَ هو كيفيتها.

وبتفقد السياق تستنبط سر اختلاف المساق؛ ففي سورة النور عندما تربط السياق الخاص –وهو رفع تهمة الزنا عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وترويع الناس من الوقوع في القذف عن طريق شهادة الجوارح– بالسياق العام، تجد أن سورة النور قد اشتملت على:

إشعاعات النور التي تمثلت في الأحكام الشرعية المرتبطة بالآداب والأخلاق والفضائل، التي تعد قبسا من نور الله تعالى، حينما أدرك المنافقون بعد هزيمتهم الساحقة من المؤمنين، وفشلهم الذريع في غزوة الأحزاب، أنهم لن ينتصروا على المسلمين أبدا إلا بالخدعة والحيلة؛ التي تشتت جمعهم وتحدث الفتن بين صفوفهم، بداية من استغلال زواج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من زوج متبناه زيد بن حارثة، إلى حادثة الإفك، واتهام أم المؤمنين –رضي الله عنها– بفاحشة الزنا(١). لذا تحدثت السورة من بدايتها عن حد الزنا والقذف به، وانتهت بآداب الاستئذان وحقوق الضيافة، والأهل؛ لترسيخ أخلاقيات الإسلام.

ومن ثَمَّ جاء التعبير بلفظ الشهادة في قوله: "يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ" والمشاهدة هي المعاينة؛ ليقول للمرء: إنك وإن شهدتَ بالرمي زورا فإن جوارحك ستشهد

(١) ينظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف: أ.د/ مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، س١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٥/ص١٦٥: ١٦٧.

عليك صدقا. والسياق من قبلها يقول: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"، وهذه الآية مستأنفة(١)؛ نزلت لتبرئة السيدة عائشة –رضي الله عنها– أم المؤمنين في حادثة الإفك، وقيل: إنها نزلت في أزواج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خاصة، ثم نقل الحكم فيها إلى المسلمات عامة، لذا جاء الفعل المضارع للاستقبال؛ ليحمل الحكم الشرعي على الدوام.

ومناسبةً لهذا السياق، ولفظاعة وفظاظة وغلاظة هذه الفعلة وشناعتها جاء بلفظ "اللعن"؛ للتحذير من قذف المحصنات، والتشديد عن اللاتي نعتهن النص القراني بالغافلات، وهن العفيفات اللاتي لا يعرفن ما رمين به، أي لا معرفة لهن بكنهه، لذا استحق مَنْ يرميهن ويقذفهن اللعن.

واللعن هو التفسيق في الدنيا، استنادا لقول الله تعالى ببداية السورة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢)؛ وذلك بأن لا تقبل شهادتهم أبدا، ولا يستأنس بهم المؤمنون، وعليه يكون معنى اللعن في الآخرة: الحجب والطرد من رحمة الله.

ورغم أن الزمن في جملة الصلة "يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ" للاستقبال، إلا أن خبر إنَّ –وهو جملة لعنوا– أتى بصيغة المضي، ولم يقل: (يلعنون)؛ ليبين أن عقاب القذف قد رُسِّخَ منذ القدم، واللعن قاعدة مثبتة، يلقاها مستقبلا كل مَن

(١) استئناف بعد استئناف قوله: إن الذين يحبون الفاحشة ..."، والكل تفصيل للموعظة في قوله: "يعظكم أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين" ، وإنما لم تعطف هذه الجملة "إن الذين يرمون" على سابقتها؛ لوقوع الفصل بينها وبين التي تناسبها بالآيات النازلة بينهما: " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان.

(٢) سورة النور آية ٤.

يرمي مؤمنا ظلما، كما أن النص القرآني أكد عليه مرارا وتكرارا ببداية السورة، فانظر إلى هذا الموضع من كتابه الكريم في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ ﴾[1].

ولم يقل بعدها أيضا: (ويعذبون عذابا عظيما)، بل آثر التعبير القرآني التعبير بالأسلوب الخبري المتمثل في الجملة الاسمية "وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ"؛ لتحقيق معنى الاستقرار في العذاب، كما أن تقديم الجار والمجرور من قبيل القصر؛ حيث خصهم بالعذاب العظيم؛ لعظم ما أتوه.

ومن ذلك تجد أن لفظ الشهادة في قوله: "يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ" مناسب للسياق؛ فهي في مقام ردع ووعيد لهؤلاء، ممن عبر النص القرآني عنهم باسم الموصول؛ لتحقيرهم في قوله: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ"، وهم جماعة عبد الله بن أبي سلول، ومن على شاكلتهم ممن يفعلون فعلتهم.

و"يَوۡمَ" ظرف منصوب متعلق بمعنى الاستقرار في قوله: "وَلَهُمۡ"، وقيل أنه منصوب على تقدير عامل: اذكر[2]، ولعل السياق يرجح الوجه الإعرابي الأول على الثاني؛ لأنه يقوي المعنى ويوطده، ويجعله مترابطا؛ إذ إن هذا اليوم يطابق اليوم الذي يلاقون فيه العذاب، لا احتياج لتذكره أو لذكره، بل هو قائم ثابت، وواقعون فيه الآن.

بينما أتى سياق سورة فصلت مشيدا بفضل القرآن الكريم، ونظمه، وأحكامه، وموضوعاته التي تسير الحياة وفق ورودها به.

---

(١) سورة النور آية ٦/٧.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ج٢/ ص٩٦٨.

وبالربط بين السياق الخاص–وهو ترويع المشركين من إنكارهم ما أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وشهادة جوارحهم يوم القيامة– والسياق العام الذي يوضح منهج الإنسانية المثبوت في القرآن الكريم، والذي أوضحه الله للمؤمنين؛ ليهديهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة؛ حيث عرض القرآن من بداية السورة وصفا لكنهه، ولنبيه المنزل عليه، والآيات الكونية على صدق دعوته إلى الإسلام والإيمان بالله عز وجل، ومصير الأمم السابقة التي أنكرت الدعوة في القرآن بقوله تعالى: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ "(١)، إلى أن وصلنا لموطن الشاهد –محل الدراسة– والذي بين مصير أعداء الله في الآخرة بقوله: " وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ".

وجملة " وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ" معطوفة على جملة "فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً"، والتقدير: وأنذرهم يوم يحشر أعداء الله إلى النار، والخطاب هنا لمشركي قريش، بإنذار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وفيها التفات؛ والتقدير: (وأنذرهم يوم تحشرون إلى النار)؛ حيث التفت من الخطاب إلى الغيبة؛ ليدل على التفات الرحمة عنهم في الآخرة؛ فقد أُنذروا وقُدِّمتْ لهم الأدلة الدامغة على سوء عاقبة الكافرين، ولكنهم أعرضوا وأنكروا، فأعرض المولى –عز وجل– عنهم بصيغة الغيبة، وتركهم في ذلك الوقت بمفردهم في النار التي يستحقونها.

(١) سورة فصلت آية ١٣.

وقيل: إن التقدير: "واذكر يوم يحشر أعداء الله" على أن الواو استئنافية، ويوم مفعول به لفعل محذوف[١]، وبهذا يكون الخطاب للمشركين عامة، ومشركو قريش واقعون ضمنا.

والسياق هنا يرجح الوجه الإعرابي الأول أيضا؛ لأن الحديث والإنذار من بداية السورة على لسان نبينا الكريم إلى قومه، بدليل قوله تعالى: "قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ"[٢].

ولم يحدد لهم النص القرآني هنا عاقبة إنكارهم في الدنيا كما هو الحال في سورة النور من اللعن للمنافقين، بل أوضح لهم جزاءهم في الدنيا عن طريق مشاهدة الأقوام الغابرة، فاستحضار الصورة يقوي مقام التحذير والإنذار؛ للرجوع عما هم فيه من الكفر، فإن كان الخطاب في سورة النور للمنافقين، لكنه هنا للمشركين، ويوجد ثمة فرق.

كما أن النص القرآني عبر بلفظ (الحشر والوزع) في النار يوم القيامة، كناية عن كثرة المحشورين فيها؛ حيث إن الحشر يقصد به الجمع والحشد، والوزع من الحبس، إذا حبس أولهم على آخرهم؛ حتى يمنعوا من التفرق والانتشار[٣].

وتعد أيضا جملة "فَهُمْ يُوزَعُونَ" تفصيل بعد إجمال؛ لأن الوزع جزء من الحشر، لكن المولى -عز وجل- أراد أن يؤكد للكافر قدرته على تصفيتهم، ورد بعضهم على البعض، دون أي تدخل أو دفاع منه عن نفسه.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن، لمحمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ، ج٢٤/ص٢٩٨.

(٢) سورة فصلت آية (٦).

(٣) لسان العرب مادتا (ح ش ر ، و ز ع).

وقوله: "حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا" حتى فيها ابتدائية؛ للاستئناف؛ حيث يظهر لك مصير إعراضهم يوم القيامة بشهادة جوارحهم التي كانوا يستخدمونها في الإنكار والعند والكفر، لذا عبر بـ(إذا) التي هي للاستقبال، و(ما) وإن كانت زائدة إلا أنها أتت؛ للتأكيد على هذا المجيء؛ فهم لا يرحمون منها، ولا يصرفون عنها.

ولأن الفعل (جاء) بدلالته يفيد الثقل[1] في الدفع والمشي والإحضار عن الفعل (أتى)، إلا أن طول المد في الحرف (ما) أفاد سرا بلاغيا آخر، وهو: تثبت المشرك بقدمه على الأرض، لا يريد أن يتقدم، بل يقدم رجل ويتراجع بالأخرى، دلالة على صعوبة هذا المجيء، فهو أصعب مجيء يقابله.

وقد فصلت جملة "شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ" على أنها جوابا للشرط، استئثار السامع لما سيحدث بعد المجيء، أو يكون استئنافا بيانيا: شبه كمال اتصال على تقدير: حتى إذا ما جاءوها سئلوا، فأنكروا، فشهد عليهم سمعهم.

والتعبير بالأفعال الماضية (جاءوها – وشهد) في سورة فصلت؛ للتأكيد على عذابهم، فهو متحقق الوقوع، أما في سورة النور كان الحديث عن الشهادة بصيغة المضارع يناسب الصيغة المضارعة في السياق من قبله " يَرۡمُونَ"؛ إذ إن الشهادة تكون إثباتا على الرامي مما يفعل في حال الاستقبال، أي قد يقع الرمي وقد لا يقع، أما الكفر هنا في سورة فصلت متحقق، لذا استدل عليه بعاقبة الأمم السابقة وكأنها فرصتهم الأخيرة في الاتعاظ والتراجع بالرجوع إلى الحق.

***

(١) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني للدكتور محمد ياس خضر الدوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، س٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ، ص٢٠٠.

وإذا نظرنا إلى السياق القدسي تجده لم يصرح بلفظ الشهادة بل بكيفيتها في قوله: **(فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ)** وذلك من بلاغة النظم القرآني أيضا؛ حيث ذكر للسامع ثلاث جمل أوجزت القضية وهي: (يرمون- ولعنوا- وتشهد)، فالمراد من الآية سرعة الرد، وسرعة الزجر، وسرعة التذكرة؛ لأن القرآن كان يدافع عن أشرف نساء المؤمنين، السيدة عائشة رضي الله عنها، فأراد القرآن التركيز على ذلك، بينما كان الحديث ضمن أحاديث الزهد والرقائق، وهو يتحدث عن رؤية الله -سبحانه وتعالى- يوم القيامة، بداية من قول الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسؤالهم: **(هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟)**، وتصديق نبي الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: **(«فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا)** أسلوب إنشائي لفظا، خبري معنى، جاء في صورة استفهام إنكاري، أي لا تضارون في رؤيته تعالى.

ثم يأتي خطاب الله جل جلاله لعبده في قوله: **(أَيْ فُلْ)**، وأي تستخدم لنداء البعيد أو النائم؛ لذا أتت لخطاب العبد الغافل عن ربه، وفل: أي فلان، وفيها ترخيم، وهذا الترخيم يوضح ملكية الخالق لجميع عباده، وعلمه بكل دقيقة من دقائقهم، لذا كان الحذف.

ثم أتى بذكر العبد المنافق؛ لترق النفس عند سماع إنكاره، وتتعظ مما سيلاقيه، عندما يقول له المولى عز وجل: **(أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا)**، استفهام تقريري يريد المولى -سبحانه

وتعالى- إقرارهم بكل النعم التي منحهم إياها؛ ليؤكد لهم على استحقاقهم العذاب عند كفرهم برسالة نبيه، وإنكارهم للبعث والجزاء يوم القيامة بقولهم **(لا)**، وقت ردهم على سؤال المولى: أفظننت أنك ملاقي؟. لذا كان لفظ الختم أبلغ من ذكر الشهادة؛ إذ هو ردٌّ على ذلك اللسان الذي أنكر ملاقاة ربه.

ثم كنى عن الشهادة بقوله: **(وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ)**، والدليل على ذلك قوله تعالى في سوره يس: "**ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ**"(١)، والتقدير وتكلمنا أيديهم بما شهدت، وتشهد أرجلهم بما تكلمت، وهذا ما يسمى احتباك(٢)؛ حيث حذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره من الأول، كنوع من الإيجاز البليغ.

وإذا رجعتَ للفظ الختم في القرآن ستجدها مرتبطة بالقلب أو السمع والبصر كقوله تعالى: "**خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**"(٣)، واستعارة إياها لفقدان البصيرة والشعور والطرق الموصلة إلى النجاة من الكفر، ولم تأت مستندة للفم إلا في هذا الموضع من سورة يس؛، لأن السورة تناقش مذ بدايتها تكذيب المرسلين بدلالة قوله تعالى: "**إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ**"(٤)، والرسل هم أساس العقيدة، وإلغاء وظيفتهم تلغي معالم الشريعة التي أنزلت عليهم.

---

(١) سورة يس آية ٦٥.

(٢) ينظر كتاب التعريفات للشريف الجرجاني ص١٠.

(٣) سورة البقرة آية ٧.

(٤) سورة يس آية ٣.

لذلك حذرهم الله في كتابه بقوله: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" ثم قال بعدها: "هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ"(١). لذا احتاج للفظ الختم، وتفصيل مصطلح الشهادة بداية من الختم على الفم، وهو بمثابة سلب كلي لإرادة الفرد؛ لأن به يستطيع المرء التعبير عن نفسه، ثم تكلم الأيدي وشهادة الأرجل.

وبالملاحظة تجد أن سياق الحديث يتطلب الإطناب؛ ليظهر كيفية الرؤية، وجزء من أهوال يوم القيامة التي يخص العبد، واستحقاقه لهذه الرؤية. وبما أن السياق سياق سرد طويل وُضِعَ المظهر مكان المضمر في قوله: **(وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ)**؛ لترتدع النفس، وترجع عن هواها، وتعود إلى إيمانها؛ وليتخيل السامع الصورة، ويعيش معها، ويتأكد منها.

بينما لم يحدث ذلك الإطناب بالحديث الثاني، والذي كان حديثه عن الظلم، قول العبد لربه: **يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟**، أي تأمني من الإجارة، وهي الأمان، أسلوب استفهام غرضه الدعاء، أي: يارب أجرني من الظلم.

ثم يرد المولى -عز وجل- بـ**(لا)**، فيقول العبد: **(فإني لا أجير على نفسي إلا شاهدا مني)**، أسلوب قصر يقصر أمانه على شهادة نفسه، مع أن أمانه بجوار الله عز وجل، من قصر الموصوف على الصفة، قصرا إضافيا غرضه القلب؛ لأن ما يدعو به الرسل هو اللجوء في كنف الله حتى يلاقي العبد الجزاء الجميل، فأراد أن يقلب هذا الكلام، ويدعي أن أمانه مع نفسه فقط.

---

(١) سورة يس آية ٦٠/ ٦٣.

ولعله –أي العبد– يعي جيدا أن بهذا اليوم لا شهود لديه سوى نفسه، متذكرا قول المولى عز وجل: "يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ "[1]؛ لذا يتحدث بنفس مطمئنة.

وجاءت موافقة المولى صدمة له على ما طلب في الحديث القدسي بقوله: **(كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا)**، والباء في فاعل كفى **(بِنَفْسِكَ)** زائدة، أفادت التوكيد، وهو توكيد يخيب الآمال؛ لأن هذه الباء زالت جميع السبل المؤدية إلى رحمة الله بهم، والعفو عنهم.

وتقدير الكلام: كفى بنفسك شهيدا اليوم، ولكن تقديم الجار والمجرور على الحال **(شهيدا)** –وقد يكون تمييزا– يقصر الشهادة على نفسه، من قصر الصفة على الموصوف، وتراه تأكيدا بعد تأكيد، فقوله: **(كَفَى بِنَفْسِكَ)** قصرا معنويا، أفاد معنى القصر الاصطلاحي نفسه.

وتَضَمَّنَ الحديث الآية القرآنية: " ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا"[2]؛ أسوة بها في بلاغتها ووجازتها، وعبر بقوله: **(وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا)**، كناية عن الملائكة، وما هو مكتوب في صحائف العبد، قصرا أيضا أكد على أخذ الحيطة في الدنيا من كل قول وفعل يرتكبه الإنسان، فصحيفة العبد هي المحك الأساسي لجميع ما حدث بالدنيا، وشهادة جوارحه تأتي في الآخرة؛ للتأكيد على أن الله –عز وجل– لم يظلمه أبدا.

وتجد في قول الحديث: **(وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا)** معنى "**اقرأ كتابك**" في الآية القرآنية، مما يؤكد على أن السنة تفصلها وتوضحها، فالنص القرآني عندما أمره بقراءة الكتاب الذي كتبته الملائكة ودونته، أثبت كونهم شهودا عليه أيضا.

---

(١) سورة عبس من آية ٣٤ إلى آية ٣٦.

(٢) سورة الإسراء آية ١٤.

وآثر النص القرآني لفظ الحسيب على لفظ الشهيد، وكلاهما من أسماء الله الحسنى، والحسيب معناه الكافي من أحسبني الشيء إذا كفاني[١]، وقولك: أنت حسبي يارب: تفويضٌ منك إلى الله –جل جلاله– بتوليه تعالى أمرك. لذا قال المولى –عز وجل– في كتابه العظيم: "وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ "[٢]، فانظر إلى الجزاء العظيم الذي يلاقيه العبد عندما يترك أمره إليه تعالى، فيكون حسيبا عليه، فالله جل جلاله لم يشهد أو يُحْصِ على مخلوقه أعماله فحسب، بل يكفيه ما أهمه فيها، والله –تعالى– قادر على توليها، فرحمته وسعت كل شيء، فما بالك إن انتقلت هذه الصفة منه تعالى إلى الإنسان؟ فانظر حجم الخيبة والحسرة التي يلاقيها، **وهذا من إعجاز القرآن الكريم في نظمه.**

وفي هذا الحديث لم يتجه إلى وضع المظهر مكان المضمر كما هو الحال بالحديث الأول، بل قال: **(قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ)**، ولم يقل: فتنطق أركانه بأعماله؛ لأنه لا داعي إلى الإطناب؛ فالسياق يتحدث عن الأمان من الظلم، فلَبَّى المولى –عز وجل– طلب العبد في اكتفائه بنفسه كشاهد عليه.

كما أن النص القرآني استدعي الأعضاء المناسبة لسياقه كما أوضحت سابقا، على خلاف الحديث الشريف؛ حيث ذكر اللحم والعظام كناية عن الجسد، والأركان كناية عن الأعضاء أيضا؛ لأن الحديث عام، لا يركز على

(١) لسان العرب مادة (ح س ب).

(٢) سورة آل عمران، آية ١٧٣: ١٧٤.

أعضاء بعينها، بينما آية النور تركز على الأعضاء المؤدية إلى القذف، كذلك سياق سورة فصلت استدعي أعضاء بعينها؛ لتناسب السياق العام للسورة.

أما سياق الحديث النبوي مختلف؛ فهو ضمن أحاديث كتاب الأهوال التي اختص بها يوم القيامة، وتعد شهادة الجوارح جزءً أصيلا منها.

وبداية الحديث تقول:

" **إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُيِّرَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ فَجَحَدَ وَخَاصَمَ، فَيُقَالُ لَهُ: جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: احْلِفُوا، فَيَحْلِفُونَ ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللَّهُ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ.**"

و**(إِذَا)** هنا ظرفية تبين ما يحدث آنذاك من أهوال لم يتصورها عقل، وكلمة **(عُيِّرَ)** من التعاير أي التساب، والتعايب دون التعاير، من عاير بعضهم بعضا[1]، كلمة بها ما بها من الإذلال والاستهزاء والتحقير ما يجعل صاحب العقل المستنير يحظى بالتفكير الدائم في تلك اللحظة، والحساب لها.

والباء في **(بِعَمَلِهِ)** سببية، أي بسبب عمله، فما بالك أن يكون سبب معرتك هي أعمالك التي من صنع يديك، ففي الدنيا قد يعار المرء بسوء أقرانه، أو عائلته، أو فقره، أو جهله،..... إلخ، لكن لِأن يكون العمل الذي اقترفه بطيب نفس منه وبإرادته بعد أن ميَّزه الله –تعالى– بنعمة العقل هو سبب مذلته، إذًا: فما أقبحها نفسا، وما أقبحه عيبا!.

والفعل المبني للمجهول ناسب المشهد الغيبي الذي خفيت دقائقه عن السامع؛ بكيفية تلك المعايرة ومَن القائم بها، فهو من كذَّبَ جيرانه وأهله وعشيرته بعد أن حلفوا على صحة أقوالهم التي توضح عنده وجحوده، حيث

(١) لسان العرب مادة (ع ي ر).

قيل له: **(جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا، فَيُقَالُ: احْلِفُوا، فَيَحْلِفُونَ)** ترى بِدْءَ النص النبوي بالجار قبل الأهل والعشيرة؛ دلالة على ذياع صيته بين الناس بالكفر والعناد، يعرفه القاصي قبل الداني.

ولم يقل: (شهدوا) بل أتى بالفعل المضارع؛ ليستحضر دقة تركيزه في أقوالهم، واستحضاره الأجوبة التي تقوي الرد عليهم برفع التهمة عنه بقوله: **(كَذَبُوا)** فعل ماض يجعل الكذب صفةً وشيمةً لهم، قد عُرفوا بها، حتى لا يُستدل بهم، ولا يُؤخذ بأقوالهم في هذا المشهد.

وليلجم لسانه –أي لسان الكافر– قيل له: **(أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ)** بحذف المسند (يشهدون)؛ لدلالة السياق عليه؛ حيث إن النص النبوي لا يريد التركيز على معنى الشهادة؛ فقد أكد عليها في الجملة السابقة عندما قال: **(جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ)** عندما أتي بكلمة الجيران مسندا، ثم عوَّد الضمير مرة أخرى عليها في الفعل يشهدون، ولكنه أراد التركيز هنا على الأهل والعشيرة الذين هم السند والظهر، فمَن له من بعدهم، وهل يحبه أحد أكثر منهم! ومع ذلك سيشهدون عليه أيضا، لكنه لم يتوانَ لحظة في إلقاء اللوم عليهم؛ بالكذب في حقه.!

ومن هذا تجد أن النص النبوي أتى بمعنى زائد عن سياق القرآن والأحاديث القدسية؛ في إشهاد الشهود ممن حوله من البشر قبل جوارحه؛ حيث تأتي شهادة الجوارح في مرحلة لاحقة فيقول:

"**فَيُقَالُ: احْلِفُوا، فَيَحْلِفُونَ ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللَّهُ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ.**"

وبالتفقد تجد أن معنى (الصمت) الذي أتى في حق الشهداء يختلف عن معنى (الختم) الذي لاقاه المنافق والكافر –المشهود عليه– في الحديث القدسي السابق، وبينهما ثمة فرق؛ حيث إن الصمت يستخدم في ما لا قوة منه للنطق، ولما له قوة النطق[1]، وهذا ينافي معنى الختم؛ الذي يستخدم في ما لا قوة فيه، فهو بمثابة الإلجام، فمن الممكن أن يكون الجيران والأهل والعشيرة لديهم القدرة على النطق، إلا أن وضوح الأمر لديهم والأدلة الدامغة على كذبِ الكافر لا تحتاج إلى شرح منهم، فيكون بذلك أصمتهم الله عن الكلام بالمنطق والدليل الواضح.

وحتى وإن كان الإصمات على أساس أنهم ليس لديهم القدرة على النطق، إلا أن لفظة الختم بها نوع من الإحكام لا يوجد في معنى الصمت، لذا استخدمت للشهداء، واستخدم الختم للكافر والمنافق ممن يُشهد عليهم يوم القيامة، وهذا من دقة النظم وبلاغته في الحديث الشريف؛ فهل يُعامل الشاهد معاملة المشهود عليه الكافر بأنعم الله..!؟ بالطبع لا، مما يبين عدل الله –جل جلاله– في معاملة عباده.

وقد يكون الإصمات في حق الجميع بالتغليب في قوله: "**ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللَّهُ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ**"؛ لأنها عاقبة الكافرين كافة، أو أن يكونوا جميعا في النار من باب أنهم أهل وعشيرة وجيران يجتمعون على الكفر، وعلى العقيدة الواحدة، التي لا محالة تستحق جميعها جهنم وبئس المصير.

***

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة: للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد ابن المفضل الراغب الأصفهاني، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م.

خاتمة

وبعد هذا التطواف توصلتُ إلى:

١- شدة الصلة بين القرآن والحديث؛ حيث إن الأحاديث فصَّلَتْ شهادة الجوارح التي نص عليها النص القرآني يوم القيامة تفصيلا دقيقا، تذكرةً وموعظةً للمتقين، وترهيبا ووعيدا للكافرين والمنافقين.

٢- إن السنة النبوية تتشابه في منهجها مع الأحاديث القدسية من حيث التأكيد والتبيين، وتنفرد السنة النبوية عنها بالتشريع أحيانا لحكم لم يرد في القرآن الكريم، وفي هذا البحث انحصر المنهج على التأكيد والتبيين لكيفية الشهادة؛ وذلك بالتأكيد على شهادة الجوارح يوم القيامة، وتبيين وإبراز معنى الختم وإزالته، ومعنى الصمت وبلاغته.

٣- إنَّ ربْطَ المفسرين بين القرآن والحديث قد أثرى كتبهم، وسهل على الباحث التركيز على صميم الأوجه البلاغية واختلافها بين النظمين، وإعمال فكره في الربط بين الآيات والأحاديث الأخرى مما يصعب الربط والتفريق بينها سوى البلاغي الأريب.

٤- اختلاف البناء البلاغي في القرآن الكريم عن الحديث؛ حيث لجأ القرآن إلى الإيجاز البليغ، ولجأت السنة إلى الإطناب المفيد غير المخل، ذلك الإطناب الذي هو إحدى ما تميز به الحديث القدسي.

٥- تَمَيُّز الحديث القدسي عن القرآن والسنة النبوية بظاهرة الحوار بين الرب وعبده وأنبيائه؛ مما يؤكد حب الله -جل جلاله- لعبده وأنبيائه؛ بإعطائهم الكثير من التوجيهات، مما يخص الاعتقاد والقدرة والعلم والعمل وغيرها من الموضوعات.

٦- اعتمد القرآن الكريم على التصريح، بينما اعتمد الحديث على الكنايات؛ لتوسعة المعنى.

٧- للسياق أثر في اختيار الأساليب مثل: وضع المظهر مكان المضمر والعكس كما جاء بالبحث، وانتقاء الألفاظ التي تناسبه: كاختيار المسند إليه المناسب لحادثة الإفك من الألسنة والأرجل، واختيار شهادة السمع والبصر الذي ناسبت سياق سورة فصلت.

٨- إن السياق له أثر في اختيار الوجه الإعرابي أيضا وترجيحه.

٩- إن الغوص في القرآن ومقارنة نظمه بنظم الحديث يبين دقته في اختيار الحرف الواحد منه، فما من زيادة أو حذف إلا بغرض، كما جاء في قوله تعالى: "حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا "، مما يدلل على سعة النظم القرآني وبلاغته التي فاقت جميع النظوم.

٨- إن هذا النوع من الدراسات البلاغية المقارنة يشوق الباحث للاجتهاد إلى الوصول لذرة من الإعجاز القرآني، ويشعره بالسعادة عندما يتصل بكلام الله المعجز وغير المعجز، وسنة نبيه الكريم، فهما أساس الشريعة والدين وإحياء الروح.

***

ومن أهم التوصيات:

١- السنة بيانا للقران .. دراسة بلاغية في كذا.

٢- دلالة صحبة الحديث للآية القرآنية في كذا.

***

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

فهرس المصادر والمراجع

*القرآن الكريم

١) أصول الفقه مباحث السنة والكتاب: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٢) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى : ٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣) تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة: لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٤) تفسير الشعراوي – الخواطر: لمحمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، س١٩٩٧م.

٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف: أ.د/ مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، س١٤٣١ه/٢٠١٠م.

٦) الجدول في إعراب القرآن، لمحمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

٧) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني للدكتور محمد ياس خضر الدوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، س٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

٨) الذريعة إلى مكارم الشريعة: للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد ابن المفضل الراغب الأصفهاني، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م.
٩) السنة بيانا للقرآن: للدكتور إبراهيم محمد الخولي، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
١٠) صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ.
١٢) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي: تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق وتعليق: الشيخ علي حسين علي، مكتبة السنة، القاهرة، س١٤٢٤ه/٢٠٠٣م.
١٣) كتاب التعريفات للفاضل العلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح بيروت، طبعة جديدة، س١٩٨٥م.
١٤) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (المسمَّى:الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، نزيل مكة المكرمة والمجاور بها، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد

علي مهدي، المستشار برابطة العالم الإسلامي – مكة المكرمة، دار المنهاج – دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

١٥) لسان العرب لجمال الدين بن منظور، دار بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

١٦) المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ ه-١٩٩٠م.

١٧) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للإمام جمال الدين بن هشام، تحقيق: أ.د/ صلاح عبد العزيز علي السيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٨) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن): للدكتور محمد عبد الله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعوية الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

***الأبحاث:**

بحث بيان السنة للقرآن: للدكتور داود بورقيبة، قسم الأحاديث وشروحها وعلومها، مجلة الدراسات، جامعة الأغواط، الجزائر، العدد ٦، س٢٠٠٧م.

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـــوع	الصفحة
١-	ملخص	٩٩١
٢-	Abstract	٩٩٢
٣-	المقدمة	٩٩٣
٤-	التمهيد	٩٩٦
٥-	أولا: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي.	٩٩٦
٦-	ثانيا: السنة بيانا للقرآن	٩٩٧
٧-	ثالثا: المقصود بشهادة الجوارح	١٠٠٣
٨-	رابعا: الآيات والأحاديث محل الدراسة	١٠٠٤
٩-	المبحث الأول: دراسة بلاغية في شهادة الجوارح بين القرآن والحديث (تحليل موطن الشاهد).	١٠٠٧
١٠-	المبحث الثاني: شهادة الجوارح بين السياق والبناء.	١٠١٩
١١-	خاتمة	١٠٣٣
١٢-	فهرس المصادر والمراجع	١٠٣٥
١٣-	فهرس الموضوعات	١٠٣٨